المبحث السابع

نفع الناس بتوعيتهم وتصحيح المفاهيم لهم

إن الفكر الإنساني كثيراً ما يتعرض لهزّات عنيفة ، تجعله يقبل الخرافة والمفاهيم الخاطئة ، وفي الغالب يسعى لهذا مُغرضون لهم أطماع يحققونها من وراء إشاعة المفاهيم الخاطئة .

ومعلوم أن السيطرة الفكرية مهمة جداً لما وراءها من وسائل وصور السيطرة وبسط النفوذ ، فالحاكم المستبد الذي يريد أن يسيطر ويضمن لسيطرته أطول مدة ممكنة ، يحيط نفسه بهالة من المفاهيم الفكرية التي تضفي عليه قداسة وأهلية للبقاء في مكانه .

والتاريخ يمدنا بصورة عجيبة ، فنقرأ في تاريخ أكاسرة الفرس أنهم كانوا يُشيعون في رعيتهم أنهم يجري في عروقهم دم إلهي ، ولذلك لما قَبِل الفكر الفارسي هذه الخرافة ، كان الناس ينظرون إلى الأكاسرة كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئًا علويًا مقدسًا ، ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر، لا يجري اسمهم على لسانهم،ولا يجلس أحد في مجلسهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويعتقدون أن لهم حقًا على كل إنسان وليس لإنسان حق عليهم... ومما يدل على مدى تقبل الفكر الإنساني لمثل هذه الخرافة هو رضاؤهم التام بالوضع القائم لدرجة أنهم لم يكونوا يفكرون في التخلص من هذا الوضع المهين حتى في أوقات ضعف الأكاسرة ، فربما وُلّى عليهم طفل ابن سبع وأقل ، ومع ذلك لا يرفضون لأن في عروقه دم إلهي وغيره لا يملك هذا الدم ، ولا يجري في عروقه !!![1] .

---

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، (ص ٤٠) .

ومثل هذه الادعاءات كنت تجدها عند قياصرة الرومان ، وقساوسة النصرانية وحاخامات اليهودية ، وضُلال المسلمين والمستبدين منهم .

ومن أنواع الهزّات العنيفة التي يتعرض لها الفكر الإنساني تزوير التاريخ من أجل خدمة فكرة معيَّنة ، فمثلاً : ما فعله كثير من المستشرقين من تزوير في تاريخ العلوم ، وحاولوا فيه تجريد المسلمين من أي إضافة إلى الحضارة الإنسانية ، في حين أنهم جعلوا ينسبون إلى مفكريهم كل فضل في تلك العلوم ، ونتج عن هذا التزوير للتاريخ أن وُجِد كثير من أبناء الإسلام يرضى التبعية للغرب ، وينبهر بفكره وحضارته المادية العفنة ، وربما يُصدّق أن الإسلام هو حجر عثرة في طريق تقدم المسلمين ، فيسارع ويدعو إلى تنحيته جانبًا ، ونزعه من واقع الحياة ، وحصره في القلوب أو المساجد فقط .

كذلك من الهزّات العنيفة التي يتعرض لها الفكر الإسلامي : الثقافات المحصَّلة من الكتب المحشوة بالأساطير والخرافات ، سواء كان هذا من الخرافات المنقولة عن بني إسرائيل ، أو مما نسجه العقل الإسلامي في فترات الانحطاط .

وكل هذا بلا شك له آثار سلبية ضارة على المجتمع ، والساعي في تصحيح هذه المفاهيم وإصلاح هذا الواقع ، بلا شك يُقدّم نفعًا عظيمًا لهذه الأمة ويساهم بجهد كبير في توعيتها وتحصينها ضد الغزو الفكري الذي يوشك أن يُفقدها هويتها ، ويصنع جيلاً ممسوخًا من أبناء المسلمين ، بل هو والله جهاد كبير . . . .

✿ وتوعية الأمة بتصحيح المفاهيم عمل خطير ونفعٌ كبير ، ولخطورته فعله النَّبيّ ﷺ كثيرًا في حياته ، فمثلاً : ذاك المفهوم الجاهلي الذي كان منتشرًا في بلاد العرب إبان بعثته ﷺ والذي ينص على مناصرة الأخ ظالمًا أو مظلومًا ، وكانت تتنادى به قبائل العرب « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** » ،ويهبُّون في عصبية حمقاء لنصرته ولو كان باغيًا فيبغون معه ، على حدّ قول قائلهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانًا !

فصحح النَّبيّ ﷺ هذا المفهوم ، فوضّح أن نصرة الأخ مظلومًا تكون بدفع الظلم عنه، ونصرته ظالمًا بحجزه عن الظلم ومنعه من التمادي فيه ، جاء في الحديث أنه قال: « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** »، قالوا: ننصره مظلومًا ، فكيف ننصره ظالمًا ؟ ، قال : « **تحجزه عن الظلم ، فذاك نصر له** » (١) .

وكم يعين تصحيح مثل هذا الفهم الخاطئ على حصار العصبية البغيضة ، وقطع دابرها من المجتمع ليبقى التعاون على حفظ الحدود واحترام الحقوق .

❁ وفعله أبو بكر رضي الله عنه - أيضًا - يوم وفاة النَّبيّ ﷺ لاحظ أبو بكر أن ثمة فهم خاطئ كان علق ببعض الأذهان ، حتى تصور البعض أن النَّبيّ ﷺ لا يموت ولا يفارق الحياة ، وحدث هذا التصور من أكبر الرجال عقلاً وأذكاهم فهمًا ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي وقف يتهدد ويتوعد من يقول إن النَّبيّ ﷺ قد مات ، وجعل عمر يُعزِّز موقفه في هذا الفهم ، بأن رسول الله ﷺ ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع، ثم أقسم عمر رضي الله عنه قائلاً : « والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجالٍ وأرجلهم زعموا أنه قد مات » (٢) .

فقام أبو بكر رضي الله عنه خطيبًا في الناس قال : « من كان يعبد محمدًا فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران : ١٤٤] قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما أن سمعت أبا بكر تلاها فهويت إلى الأرض وما تحملني قدماي ، وعلمت أن رسول الله ﷺ قد مات » (٣) .

---

(١) البخاري برقم (٢٤٤٤) .

(٢) **انظر** : الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي (٢ / ١٧٦)ط. دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٦٥م.

(٣) **انظر** : محمد محمد أبو شهبة ، السيرة النبوية (٢ / ٥٩٤) ط. دار القلم ، دمشق ،١٩٩٦م .

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ :

« رحم الله الصدِّيق الأكبر رضي الله عنه ، كم من مصيبة درأها عن الأمة ، وكم من فتنة كان المخرج على يديه ، وكم من مشكلة ومعضلة كشفها بشهب الأدلة من القرآن والسُّنَّة التي خفيت على مثل عمر رضي الله عنه ، فاعرفوا للصديق حقه رضي الله عنه ، واقدروا له قدره،وأحبوا حبيب رسول الله ﷺ، فحبه إيمان ، وبغضه نفاق » (١) .

فانظر كم نفع الله الأمة بمثل هذه الوقفة لتصحيح الفهم، ويقدّر هذا العمل من نظر إلى حال من لم يستجب لمثل هذه التوعية، وفضّل قبول الخرافة، وقاتل الدنيا من أجلها، ونسج أوهامًا وخيالات على أساس منها، فانظر ما يقول الشيعة في رجعة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه (٢) ، واحمد الله على فِعْل أبي بكر رضي الله عنه .

ومما يُؤْثر في مواقف الصدّيق رضي الله عنه في توعية الأمة بتصحيح فهمهما لكتاب الله تعالى ، ذاك الموقف الشهير حول آية سورة المائدة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)** ﴾ [المائدة : ١٠٥] .

قال أبو بكر رضي الله عنه : إنكم تضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب من عنده** » (٣) .

وهذا تصحيح لفهم لو فشا بين الناس لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانشغل كل إنسان بخاصة نفسه فقط .

واستمرت قوافل الحريصين على نفع الأمة بتوعيتها وتصحيح المفاهيم لها على مرِّ العصور الإسلامية ـ بحمد الله ـ وكان يبدو أثرهم وتشتد الحاجة إلى

---

(١) **انظر** : الجامع لأحكام القرآن (٤ / ٢٢٢) .

(٢) **انظر** : عن الرجعة في عقائد الشيعة ، كتاب « موسوعة الشيعة الاثنى عشرية » للدكتور/ أحمد عليّ السالوس .

(٣) **انظر** : صحيح سُنن أبي داود برقم (٣٦٣٤) .

قيامهم بهذا الواجب في فترات الغربة والانحطاط على وجه الخصوص ، وانظر مثلاً : في فترة انحطاط الأمة الإسلامية عندما سيطر التتار والصليبيون على أكثر أجزائها ، كيف نهض العلماء يصحّحون المفاهيم للأُمَّة ويميطون عنها آثار الجهل والخرافة ، مما كان له عظيم الأثر في نهضة الأمة وصحوتها حتى استطاعت أن تتغلب على خصومها ، ومن أشهر من نفع الله بهم الأمة في تلك الفترة ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام ، وابن الجوزي ، وابن القيم ، وابن كثير ، وتلاميذهم الذين لا يُحصَوْن كثرة .

ولي تاريخنا المعاصر رجال كثيرون أفنوا أعمارهم في هذا السبيل ، ونفع الله بهم العباد أيما نفع ، وكانوا سببًا مباشرًا في نهضة الأمة وصحوتها في الحقبة الأخيرة ، منهم على سبيل المثال :

الأستاذ / أنور الجندي ، والأستاذ/ عمر فرّوخ ، والأستاذ / أحمد محمد شاكر ، والأستاذ / محمود محمد شاكر ، والأستاذ/ محمد الغزالي ، والأستاذ/ سيد قطب ، والأستاذ / أبو الحسن النبوي ، والأستاذ أبو الأعلى المودودي ، والأستاذ /وهبة الزحيلي ، والأستاذ/ عماد الدين خليل ، والأستاذ/ يوسف القرضاوي ، والأستاذ/ عبد الحليم عويس ، والأستاذ/ جمال عبد الهادي ... وغيرهم كثير .

وسأسوق لك بعض النماذج لبعض هؤلاء الساعين في نفع الأمة بتوعيتها لتقدّر خطورة وأهمية هذه الطريقة من طرائق النفع :

فمن المفاهيم التي صححها الأستاذ/ عمر فرّوخ ـ رحمه الله ـ ذاك المفهوم الذي اشتهر في التاريخ في العصر االعباسي حول تهمة الزندقة وهي الاتهام بالكفر، وهي في ظاهرها تبدو دفاعًا عن ساحة الدين ، ولكن عمر فرُّوخ : « يرى أنها كانت وسيلة للتخلص من الخصوم السياسيين ، لا للدفاع عن الدين، فكم

من زنديق كان يمرح ويسرح لا يَلقي تأنيبًا ، فضلاً عن تعذيب ، وكم من تقيّ اتهم بالزندقة وقُتِلَ بها ، وما ذاك إلا لأن الأول لم يكن خطرًا على الدولة ، بينما الثاني كان خطرًا عليها ، من ذلك أن بشار بن بُرد عاش طوال حياته زنديقًا فلم يتعرض له أحد ، فلما هجا وزير المهدي « يعقوب بن داود » وأخاه « صالحًا » والي البصرة ، أثيرت قضية زندقته وقُتِلَ بها »[١].

وهذا من شأنه أن يُفهم الأمة أن التديُّن ليس إرهابًا ، وتهمة الإرهاب ليست دفاعًا عن الدين ولا الوطن ، ولا رجوعًا بالناس للوسطية ، وإنما هي للتخلص من الخصوم السياسيين أيضًا ، فكم من إرهابي « بلطجي » لا يُتعرض له ، وكم من تقيّ بسيط تلفق له تهمة الإرهاب والتنظيم السِّري فيلحق من راحوا ضحايا تهمة الزندقة في العصر العباسي !! .

ومثال آخر من مواقف النفع بالتوعية وتصحيح المفاهيم نسوقه من كتب الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ وهو بصدد ما فعله بعض المستشرقين من تزوير لتاريخ العلوم بغرض تجريد المسلمين من أي إضافة إلى الحضارة الإنسانية .

يقول الغزالي ـ رحمه الله ـ :

« ... في جامعة تونس أستاذ فرنسي كان يدرّس علم الضوء أو البصريات كما يسمى في ثقافتنا القديمة ، وكان الأستاذ معجبًا كل الإعجاب بقانون « الهازن » الذي اكتشفه أحد علماء العصور الوسطى ، وسبق به سبقًا بعيداً ، وفتح فتحًا جديداً ، وسأله الطلاب : لكن من « الهازن » هذا ؟ ، فقال : أظنه من كبار العلماء الإسبان ! .

وذهب الطلاب إلى الدكتور بشير التركي ، وعنه نقلنا هذه الطرفة ـ فأجاب الرجل وهو دَهِش: الهازن هذا هو الحسن ابن الهيثم العالم العربي المسلم الشهير،

---

(١) **انظر** : أ. أحمد العلاونة : عمر فرّوخ في خدمة الإسلام ، (ص١٥٢) ، سلسلة كتاب الأمة العدد (١٠٢) نقلاً عن كتاب بشار بن برد ، (ص٢٢) لعمر فرّوخ .

وهو راسخ في علم البصريات، وله نظرات يُضارع بها أعظم علماء عصرنا،ولا تقل مكانته عن آنشتين وأمثاله، لأن العلم ما زال ينهل من كشوفه وأحكامه وقد يبقى العالم معتمداً عليه ألف سنة أخرى، وهو من أول الأساتذة الذين درسوا في الجامع الأزهر:وأما قانونا الضوء المنسوبان إلى ديكارت ، فحسن بن الهيثم هو صاحبهما، وواضعهما قبل ديكارت بستة قرون، وكتاب علم المناظير لا يزال مرجعًا في موضوعه، وذهب الطلاب إلى الأستاذ الفرنسي بهذه الإجابة فلم ينطق بكلمة ، وكل ما حدث أنه أضرب إضرابًا تامًا عن الإشارة من قريب أو بعيد إلى «قانون الهازن» هذا ، فما ذكره بخير ولا شر ،وظاهر أن الأستاذ قد بوغت بعظمة عالم مسلم وهو يمقت الإسلام من الأعماق، فلاذ بالصمت وطوى القصة كلها .

على أنني عُدت إلى نفسي وإلى قومي أُوجِّه اللوم بعد اللوم ، وأتساءل بغيظ : فما مكانة الحسن بن الهيثم في تاريخنا ؟ ، وما مكانة غيره من علماء الحياة والكون كجابر بن حيان والخوارزمي ؟!! .

إننا قبل أعدائنا كنا أسرع إلى إهالة التراب عليهم ، ربما ظفر بالشهرة أبو نواس قديمًا ، وعبد الحليم حافظ حديثًا ، وأما الراسخون في العلم فهم يسيرون إلى جوانب الجدران،وينسحبون من الحياة كما جاءوها على استحياء أو في استخفاء...»[1].

وكم من مفاهيم صححها الغزالي ـ رحمه الله ـ في مؤلفاته ومحاضراته ، ومثله الأستاذ/ أنور الجندي في كتابه « مشكلات الفكر المعاصر »[2] ، والذي راح يصحح فيه مفاهيم عديدة « مثل مفهوم البطولة، الأصالة ، المعاصرة ... » وكم كتب تحت عنوان :مؤلفات في الميزان ، يُقيّم الكتب ويميز غثها من ثمينها ليقدمة للأمة ، وكم فضح خطط المبشرِّين والمستشرقين والهدَّامين ... كل هذا

---

(١) الطريق من هنا ، (ص ٢٥-٢٦) ط. دار الشروق ، القاهرة ١٩٨٧م .

(٢) هذا الكتاب لا يستغنى عنه أي فرد يريد أن يصحح مفاهيمه ، وقد طبع عدة مرات منها طبعة لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف .

في سبيل توعية الأمة الإسلامية .

والأمة الإسلامية ـ الآن ـ في أمس الحاجة إلى من ينفعها بهذه الطريقة من طرائق النفع يصحح لها مفاهيمها :

- فيوقفها على تاريخها الصحيح بعد تجريده مما أضافته يد التزوير المغرضة إليه .
- يُعرِّفها كيف تربط حاضرها بماضيها المجيد لتصنع مستقبلها بإذن ربها .
- يُعرِّفها أصدقاءها وخصومها ، فكم بيننا من أحمق لا يدري مَنْ خصمه ولا مَنْ صديقه !! .
- ينمي عندها حاسة التحقيق والتمحيص لكل فكرة أو رأي أو رواية .
- يبصِّرها بأهداف الغزو الفكري والعولمة والمذاهب الهدَّامة ونحوها .
- وهذا من شأنه أن يعين على تكوين جيل النصر والتمكين والعزة والكرامة.
- وعلى الأمة جميعًا أن تشارك في هذا النفع العام ، كل فرد بحسبه :
  - فالذي يستطيع تحقيق التراث وتصحيح المفاهيم وربطها بالواقع يفعله .
  - والذي لا يستطيع هذا ، عليه أن يعرض ما حققه المحققون وصححه المصححون على الناس في خطبه ودروسه ومحاضراته .
  - والذي لا يستطيع هذا ولا ذاك ، فلا أقل من أن يُعين هؤلاء المحققين والمصححين لمفاهيم الأمة ، إما بماله أو أن يقبل ويقنع بما يصححونه ـ ما دام حقًا ـ ويكفُّ أذاه وانتقاده عنهم ، فإن كثيراً منَّا وخصوصًا من له قراءات معيَّنة ، لا يُعجبه التحقيق وتصحيح المفاهيم ، وتجده دائمًا يعترض قائلاً : ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين ! .
  - ونحتسب على الله أن يكون هذا العمل ـ من ذي نية صالحة ـ من أفضل القربات إلى الله تعالى ـ ، ولا تبرأ ذمة الأمة على الإجمال إلا بقيامها بهذا الواجب الكفائي .